

الخيانة.. والخروج من المعنى والانتماء



○ بقلم:

سميرة بن رجب

في اللغة، الخيانة هي «نقض العهد» أو «إخلاف الوعد» في أعلى درجاته. لكن فلسفياً، الخيانة ليست مجرد كسر للقاعدة، بل هي انتهاك لعلاقة قائمة على الثقة تكون فيها التوقعات متبادلة ومعلنة أو ضمنية.

يمكن تمييز الخيانة عن الغش والكذب العاديين بأن لها عناصر محددة، أهمها أنها تنطوي على علاقة سابقة بين الطرفين؛ وأن تكون انتهاكاً لأمانة أودعت لدى أحد الطرفين بوعي؛ وأن تحمل بعداً وجودياً لأنها تمس هوية الخائن.

أما «خيانة الوطن» فهي حالة خاصة؛ لأن الوطن ليس طرفاً بشرياً يمكن مقاضاته، بل هو مركز انتماء ومعنى.. لذلك تعتبر في أغلب الثقافات أخطر أنواع الخيانة.

إن مفهوم الوطن يتجاوز التعريفات الجغرافية والقانونية.. فهو حقيقة وجودية تلامس أعماق الإنسان، وقيمة أخلاقية تستدعي الالتزام والتضحية، ووحدة جدلية لا تنفصل فيها الجذور عن الأغصان، ولا الماضي عن المستقبل. الوطن بهذا المعنى ليس شيئاً نملكه، بل شيئاً نكونه، من خلال المعنى الذي نعطيه، والانتماء الذي نعيه بجذوره وأبعاده الوجدانية.

إذن؛ في بعدها الوجودي تمثل خيانة الوطن لحظة انقطاع حاد عن الجذور؛ فالخائن لا يَنْقُضُ عهداً فقط، بل يقذف بنفسه خارج المعنى (أو خارج الانتماء) الذي كان يمنحه هويته.

في كتابه «الوجود والعدم»، يشير الفيلسوف الفرنسي جان بول سارتر إلى أن الخيانة هي شكل من أشكال «سوء النية» المتطرف، إذ يختار الإنسان أن يتنصل من حريته في الالتزام، متظاهراً بأنه مجبرٌ على ما فعل.

أما في البعد الأخلاقي، فإن الخيانة تواجه أحد أهم الأسئلة الفلسفية الكبرى، وهي: هل الخيانة شر مطلق، أم تتحدد بمرجعية الأخلاق؟

من منظور أخلاقي مطلق (الأديان) فإن الخيانة خطيئة أخلاقية؛ لأنها تنتهك قاعدة «لا تكذب» و«أوف بوعودك» بغض النظر عن السياق.

أما بول ريكور فيذكر في كتابه «الذاكرة، التاريخ، النسيان» أن «خيانة الوطن» تتفرد بين أنواع الخيانة؛ لأنها تجمع بين الخيانة الشخصية للأباء والأجداد والمجتمع، والخيانة الميتافيزيقية لانتماء أعمق من العقد.

ويقول الفيلسوف الفرنسي إن الوطن هو «الأرض التي اختارها أجدادنا لتكون قبراً لهم». لذلك، خيانتها ليست خيانة لمؤسسة أو حكومة، بل خيانة للذاكرة والجسد الجمعي (Memory, His-tory, Forgetting/ Paul Ricoeur; The University of Chicago Press, 2006).

أما في الفكر الإسلامي فإن الخيانة (بمعنى الغدر ونقض العهد) محرمة بنصوص قطعية في ذم الخيانة والخائنين بقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْخَائِنِينَ» (الأنفال: 58)، و«إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَانًا أَثِيمًا» (النساء: 107)، وقوله «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ» (الأنفال: 55-56).

هذه النصوص الإلهية تقف سداً منيعاً أمام الفلسفات التي بررت الخيانة بنصوص إشكالية كانت في أغلبها ذريعة للحركات الدينية، والعلمانية، والبراغماتية، والحزبية.. وغيرها، التي خرجت من المعنى والانتماء للأرض والعهد لتبرير مواقف الخيانة، فجاءت عبر التاريخ بالغزاة والمحتلين إلى أرض المسلمين.. وأعدت إنتاج الإشكالية في عصرنا هذا الذي يُعاد فيه بناء مفاهيم جديدة للغزو والاحتلال، والإرهاب والدمار، والصراعات والحروب بالوكالة، ونهب ثروات الأمم والشعوب. وبعيداً عن التجريد، فإن الخيانة كتجربة إنسانية تعني تمزق الثقة بين أفراد المجتمع الواحد؛ لأن الخيانة لا تُدمر العلاقة فحسب، بل تدمر القدرة على الثقة أصلاً.. وإن من يتعرض لعمل الخيانة يعيش حياته مع «ندبة وجودية» داخلية، متسائلاً عن هويته، وكيف انخدع؟ وهل كان يستحق ذلك؟ وبجانب كل هذا غالباً ما يعيش الخائن في حالة من الغموض الأخلاقي مع ذاته، والانقسام بين التبرير والشعور بالعار.

لذلك، وكمسألة إنسانية، تم الاهتمام بالخيانة كواحدة من «الحالات الحدية» التي تكشف عن هشاشة الإنسان وحريته في أن، وتكشف عن قدرته على الالتزام، وتناقض ولاءاته.. وإن الخيانة ليست مجرد فعل، بل هي نافذة لفهم كيف نبني الثقة وكيف تنهار.

لذلك تبقى الخيانة سؤالاً مفتوحاً حول هشاشة الإنسان.. ويبقى في الطرف الآخر الاهتمام ببناء الإنسان بأطره الفكرية والعقائدية، ووعيه، من أهم معالجات هذه الهشاشة، التي يتم وضعها على قواعد منيعة، مبكراً، لتوازن القيم الأخلاقية والروحية والبنوية.